

مذهب ابن حزم* الأندلسي في الحب.

(384 - 456 هـ)

الملخص:

يلاحظ الدارس لكتاب طوق الحمامة لابن حزم أن الغزل قد استأثر بالقسط الأكبر من فكره¹ وربما كان لنشأة ابن حزم المترفة بين الجواري وإطلاعه عن كتب على أسرارهن وتجربته المبكرة في الحب أثر في ذلك² إذ على الرغم من المراقبة الأخلاقية التي كانت عائلته المحافظة تفرضها عليه في قصور قرطبة راحت نفسه تتفتح منذ حدائته على هذا الفيض من العواطف الذي احتبسه التدين في خاطره³ مما جعل صورة المرأة لا تفارق خياله أنى حلّ وارتحل ، حتى تكوّن لديه مذهب في الحب يعتقده كما يشير إلى ذلك في مؤلفه طوق الحمامة .

أ.محمد بن الحمر

قسم اللغة العربية
كلية الآداب

والعلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية
جامعة أبي بكر بلقايد - تلمسان -

إن فقيها كابن حزم جمع بين العنف العلمي⁴ والحسن المرهف لا بدّ أن يترك بصماته واضحة وآثاره ظاهرة في ميدان الحب والعواطف ، كما تركها واضحة جلّية في ميدان الجدل والمناظرات .

والباحث في كتابه طوق الحمامة يدرك من دون شك ، مدى استيعاب كتابه إستيعاباً واقعياً لتلك اللحظات العاطفية الحساسة التي عاشها ابن حزم ، وما تركته من جروح في قلبه وروحه ، وكيف أنها جعلت من حياته العاطفية مغامرة شائقة تستحقّ الوقوف عندها لمعرفة شخصيته الناعمة العاشقة والإطلاع على مذهبه في الحب .

1.مصدر دراسة مذهب ابن حزم في الحب :

يعدّ كتابه طوق الحمامة في الإلفة والألف المصنوع الأساس الذي اعتمده في دراسة مذهب في الحب وذلك لافتقارنا إلى ديوانه الذي جمعه تلميذه الحميدي على حروف المعجم كما قال⁵.

وعلى الرغم من العون الذي يقدمه لنا هذا الكتاب في هذه الدراسة ، إلا أنه يظل ناقصاً في إعطاء صورة كاملة عن مفهوم ابن حزم لهذا المذهب في الحب وذلك لسببين اثنين هما:

أولاً : إن طوق الحمامة يمثل المصدر الرئيس لشعره الذي نظمته قبل الثلاثين من عمره⁶ وهذا قليل إذا ما اعتبرنا أن ابن حزم ظلّ يعاود قول الشعر في هذا المذهب حتى شيخوخته .

ثانياً : إن كتاب طوق الحمامة نفسه لم يسلم من تصرف يد الناسخ فيه ، وهذا باعترافه هو إذ يقول في نهاية الطوق : " كملت الرسالة المعروفة بطوق الحمامة لأبي محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم رضي الله عنه بعد حذف أكثر أشعارها ، وإبقاء العيون منها تحسینا لها

وإظهارا لمحاسنها وتصغيرا لحجمها ، وتسهيلاً لوجدان المعاني الغريبة من لفظها" . 7. ومهما يكن من أمر هذه الأسباب ، فقد استطاع ابن حزم من خلال كتابه طوق الحمامة أن يرسم صورة جليلة لمذهبه في الحب تمكّنا - من دون شك - من الوقوف على فلسفته فيه ، ومعرفة خصوصياته التي تميزه عن باقي أنواع الحب الأخرى ، التي ذكرها في سياق حديثه عن مذهبه . 2. مقومات مذهبه :

يبدو أن ابن حزم قد أفاد كثيراً من تجربته في الحب ، وكذا من تجارب الآخرين وجسد في الوقت نفسه عمق هذه التجارب في الأصالة والابتكار ، إذ استنّ لنفسه مذهباً متميّزاً في الحب ضمّ مجموعة من الخصائص والمقومات كان أغلبها ذاتياً شخصياً وفي هذا المعنى يقول : "وما مذهبي أن أنضى مطية سواي ، ولا أتلى بحليّ مستعار" 8 .

وتعدّ فكرة - ما دخل عسيرا لم يخرج يسيرا - القاعدة الجوهرية التي أقام عليها صرح هذا المذهب وفي ذلك يقول : " ومن الناس من لا تصحّ محبّته إلا بعد طول المخافة وكثير المشاهد وتمادى الأنس ، وهذا الذي يوشك أن يدوم ويثبت ولا يحبك فيه مرّ الليلي ، فما دخل عسيرا لم يخرج يسيرا وهذا مذهبي " 9 .

وفي ذلك يقول أيضاً منطلقاً من تجربته الذاتية : " ما لصق بأحشائي حبّ قط إلا مع الزمن الطويل وبعد ملازمة الشخص لي دهرًا ، وأخذني معه في كلّ جدّ وهزل ، وكذلك أنا في السلوّ والتوقي" 10

على هذه القاعدة السيكلوجية يستند ابن حزم في تفسير مذهبه في الحبّ ، فهو يسير في معالجة هذه الفكرة سيرا علمياً دقيقاً ، يصدر عن مقدمات وينتهي إلى نتائج 11 مستكنها أعماق النفس ومبيناً في وقت واحد أثر الاستقرار النفسي في استمرار عاطفة الحبّ ، والتمكين لها ، فابن حزم إنّه يكشف عن عقلية سيكلوجية خبيرة : لأنه يربط الحب بالزمان ويقيم العاطفة على تعدد التجارب وارتباطها بموضوع واحد ، فيبين لنا كيف أن للاستقرار النفسي دوراً هاماً في تأصيل عاطفة الحب ودوامها وكيف أن " ما دخل عسيراً لم يخرج يسيراً " 12 . ونستشف مما سبق أن تجربة ابن حزم العميقة في ميدان الحب ، قد دلّته أن العشق السريع هو أقرب إلى الشهوة منه إلى الهوى المتمكن من الفؤاد ، الشيء الذي جعله لا يؤمن بالحب الذي يصدر عن نظرة واحدة ، ويتعجب من الإنسان الذي كانت تلك صفته ولا يكاد يصدقها وفي هذا يقول :

" فمن أحسب من نظرة واحدة ، وأسرع العلاقة من لمحة خاطرة ، فهو دليل على قلة الصبر ومخبر بسرعة السلو وشاهد الظرافة والمثل . وهكذا في جميع الأشياء أسرعها نمواً أسرعها نفاداً " 13 . ومن شعره في هذا المعنى 14 :

محبة صنق لم تكن بنت ساعة	ولا وريت حين ارتياد زنادها
ولكن على مهل سرت وتولدت	بطول امتزاج فاستقرّ عمادها
فلم يدن منها عزمها وانتقاضها	ولم ينأ عنها مكثها وازديادها
يؤكد ذا أنا نرى كل نشأة	تتمّ سريعاً عن قريب معادها
ولكني أرض عزاز صليبة	منيع إلى كلّ الغروس انقيادها
فما نفدت منها لديها عروقها	فليست تبالي أن يجود عهادها

وكما فرّق ابن حزم في مذهبه بين الحب والشهوة عن طريق الكيفية التي يتم بها الحب كذلك يفرق بين الحب الصادق ، والتعلق بحبيبين في وقت واحد ، مؤكداً وحدانية الحبيبة . ويرى أن التعدّد هو صنو الشهوة ، في حين أن الوجدانية هي قرينة المحبة . ولهذا يقرر أن كل من يزعم أنه يجمع بين حبين لشخصين مختلفين ، فقد اختلطت عليه المحبة بالشهوة ، والشهوة لا تسمى حباً على التحقيق بل على المجاز فقط . ولابن حزم في هذا المعنى أبيات يقول فيها 15 :

كذب المدعي هو اثنان حتماً	مثل ما في الأصول أكذب ماني
ليس في القلب موضع لحبيبي	ن ولا أحدث الأمور بشائي
فكما العقل واحد ليس يدري	خالقاً غير واحد رحمان
فكذا القلب واحد ليس يهوى	غير فرد ميعاد أو مدان
هو في شرعة المودة ذو شر	ك بعيد من صحة الإيمان
وكذا الدين واحد مستقيم	وكفور من عنده دينان

ويتضح من هذه المقطوعة أن ابن حزم كان يؤمن بوجدانية الحبيبة ، كإيمانه التام بوجدانية الله والدين وهو لهذا يحمل بشدة على القائلين بإمكان الجمع بين حب اثنين في وقت واحد . وتأصيلاً لمذهبه في الحب يرفض ابن حزم فكرة أن يكون للمحبة سبب من الأسباب لأن تلك في نظره تفنى بفناء سببها ، بينما الحب الدائم هو الذي يكون علة نفسه بعيداً عن أي طمع مادي وكان هذا طبعه الذي درج عليه وفي ذلك يقول : 16

ودادي لك الباقي على حسب كونه	تتأهى فلم ينقص بشيء ولم يزد
وليس له غير الإرادة علة	ولا سبب حاشاه يعلمه أحد
إذا ما وجدنا الشيء علة نفسه	فذاك وجود ليس يفنى على الأبد
وإما وجدناه لشيء خلافه	فإعدامه في عدمنا ما له وجد

ومن هذه المفاهيم ما يحملنا على الاعتقاد بأن مذهب ابن حزم في الحب كان نابعا من طبيعته الإنسانية ونبل روحه وعاداته ، ومفاهيمه الأخلاقية والدينية ، ولهذا نجد يرفض أن يكون للحب علة من العلل ، لأن ذلك يفنى بفناء علة .

ولعلّ هذا الذي جعله يرى أن الحب ليس بمنكر في الديانة ، ولا محظور في الشريعة ما دام صاحبه ملتزماً بحدوده ، وفي هذا الصند يقول : " فبحسب المرء المسلم أن يعف عن محارم الله عزّ وجلّ التي يأتيها باختياره ، ويحاسب عليها يوم القيامة . وأما استحسان الحسن وتمكّن الحب فطبع لا يؤمر به ولا ينهى عنه ، إذ القلوب بيد مقلّبتها ، ولا يلزمه غير المعرفة والنظر في فرق

ما بين الخطأ والصواب وأن يعتقد الصحيح باليقين . وأما المحبة فخلق ، وإنما يملك الإنسان حركات جوارحه المكتسبة. "17.

ويمكن استخلاص مما سبق ، أهم المقومات الفنية والإنسانية التي تشكل مفهوم مذهب ابن حزم في الحب ، في هذا الجدول البياني :

الشكل	الكيفية التي يتم الحب بها	نوعيته	طبيعته
الشكل الأول	من نظرة واحدة	ضرب من الشهوة	مخبر بسرعة السلو
الشكل الثاني	حب إثنين في آن واحد	حليف الشهوة	حب كاذب
الشكل الثالث	حب لسبب من الأسباب	حب لشيء خلافة	يفنى بفناء سببه
الشكل الرابع	حب واحدة	حليف المحبة	حب صادق
الشكل الخامس	حب مع المطاولة	حب متمكن من صميم الفؤاد	غير مخبر بسرعة السلو
الشكل السادس	حب لذاته	الحب علة نفسه	لا يفنى على الأبد

ويستنتج من هذا الجدول البياني ، أن ابن حزم الأندلسي في تصيله لمذهبه في الحب يركز على معالنتين نفسيتين متنافرتين ، استخلصهما من تجاربه الشخصية ، وتجارب الآخرين المتصلة بميدان الألفة والآلاف وهما :

أولاً : معادلة : " ما دخل عسيرا لم يخرج يسيرا "18. وهي المعادلة التي تترجم مفهوم ابن حزم لمذهبه في الحب وتشمل الشكل الرابع والخامس والسادس من الجدول البياني .

ثانياً : معادلة : " في جميع الأشياء أسرعها نمواً أسرعها نفاذاً "19. وهي المعادلة التي تنافر مذهب في الحب وتشمل الشكل الأول والثاني والثالث من الجدول البياني .

وفي ختام هذه القراءة الفنية في مذهب ابن حزم في الحب نقول ، إنه على الرغم من ضعف هذا الرجل أمام أحاسيسه العاطفية ، إلا أنه كان أبي النفس عفيف الحاجة يتعالى عن سفاسف الحياة ، صادقا في ذلك مع نفسه ومع الآخرين ، ليس هو القائل : " يعلم الله وكفى به عليم ، أني بريء الساحة سليم الأديم ، صحيح البشرة ، نقي الحجرة ، وإني أقسم بالله أجل الإقسام أني ما حطت منزري على فرج حرام قط ولا يحاسبني ربي بكبيرة الزنا مذ عقلت إلى يومي هذا "20.

وهذا يدفعنا إلى الاعتقاد بأن ابن حزم كان يؤمن إيمانا راسخا بعفاف العاطفة ، وارتفاعها عن موضع الشهوة مما يجعله من أنصارها " الذين يريدون بالحب معنى لا يختلط بالغريزة ولا يقع في رحابها " كما يقول الدكتور مصطفى عبد الواحد21.

المواضع :

- * هو أبو محمد علي بن سعيد بن حزم الوزير الظاهري ، ولد سنة 384 هـ بقرطبة من أسرة متزفة ، عرفت بالجاه والثروة والوزارة . عرف بوفرة مؤلفاته في شتى التخصصات ، واشتهر بمذهبه الظاهري في الفقه . توفي رحمه الله سنة 456 هـ .
- ينظر ترجمته في : الذخيرة لابن سام ، والجزوة للحميدي ، ومطمح الأنفس لابن خاقان وغيرها .
1. طوق الحمامة في الألفة والألاف ، لابن حزم ، تحقيق د. الطاهر أحمد مكّي دار المعارف ، القاهرة ط3. سنة 1980 ص 79.
 2. ابن حزم أديبا وناقدا ، رسالة ماجستير - إعداد محمد بن اعمر مخطوطة بجامعة دمشق ، سنة 1988 ص 54.
 3. ابن حزم الأندلسي، حياته وأدبه، د. عبد الكريم خليفة مطبعة معتوق إخوان بيروت (د.ط. تا) ص 7.
 4. ابن حزم الأندلسي ، رسالة في المفاضلة بين الصحابة ، سعيد الأفغاني ، المطبعة الهاشمية ، دمشق سنة 1930م ص 129.
 5. جذوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس ، للحميدي ، تحقيق محمد بن تاويت الطنجي ، مطبعة السعادة مصر ط1 سنة 1372 هـ \ 1952م ص 291 .
 6. ابن حزم الأندلسي حياته وأدبه ، د. عبد الكريم خليفة ص 225 .
 7. طوق الحمامة ص 198 .
 8. المصدر السابق ص 17.
 9. المصدر السابق ص 44.
 10. المصدر السابق ص 44 .
 11. ابن حزم الأندلسي المفكر الظاهري الموسوعي ، د. زكريا إبراهيم ، الدار المصرية للتأليف والنشر (د.ط. تا) ص 59.
 12. مشكلة الحب د. زكريا إبراهيم دار مصر للطباعة ط2 سنة 1970 م ص 328.
 13. طوق الحمامة ص 43.
 14. المصدر السابق ص 45.
 15. المصدر السابق ص 46.
 16. المصدر السابق ص 22.
 17. المصدر السابق ص 60.
 18. المصدر السابق ص 44 .
 19. المصدر السابق ص 43.
 20. المصدر السابق ص 165.
 21. دراسة الحب في الأدب العربي ، د. مصطفى عبد الواحد مطبعة دار المعارف مصر سنة 1972م (د.ط) ج 2 ص 249.

